ثامناً: على كل طبيب يريد القيام تماماً بمهمة وظيفته الا يفتأ عن تقديم النصائح اللازمة ابان وجود مرض سار في بيت ما. فلا يجوز له ان يكتفي بالقول بل يجب التكرار وتخويف الاهل من سوء العقبى اذا لم يبعدوا الأولاد السليمين عن المصاب بالدفتيريا. وعندي انَّ الطبيب المعالج اذا لم يبذل جهده في تنفيذ اوامره الطبيَّة يكون هو المسؤول ذمةً لانهُ عارف بشرّ الداء وبشدة سرايته اكثر من اهل العليل الذين يدوّخهم الرعب. فمن منّا يا ترى لو رأى امّاً تترك ولدها بقرب محلّ الخطر لا يمسك الولد ويأخذهُ الى محلّ امين ويجود بالنصائح المفيدة لتلك الامّ الجاهلة معنّفاً اياها تعنيفاً مرًّا اذا لزم الامر. فالنصائح والارشادات وقت الامراض السارية قد تأتي بفوائد جليلة تنقذ اولاداً كثيرين من الموت

وبالختام نستسمح العذر من حضرة القرّاء عمَّا يكون اصابهم من الملل لمطالعة مقالتنا هذه. الّا اننا لبّينا داعي الضمير ظنًّا بارواح الاطفال من ان تذهب قرباناً على مذبح الجهل فان اصبنا المرمى فزمية من غير رام والّا فترجو المعذرة وغضّ النظر والسلام على من اتبع الهدى

وفي وقت آخر سأنشر ان شاء الله فصلاً في طرائق اماتة وملاشاة جراثيم الامراض بالتفصيل مع ذكر اهمّ المقاقير المستعملة لهذا القصد ومقاديرها وكيفية استعمالها الى غير ذلك ممَّا ييسّر لي البارئ ذكرهُ خدمة للانسانية وتقليلاً للويلات. والله وليّ امري وهو نعم مسؤول واليهِ ترجع كل الامور

في الروايات الخياليَّة

للاب ايدي لوريول اليسوعي

(تابع لما سبق)

في خصائص هذه الروايات

سبق الكلام ان مرادنا بالروايات الخياليَّة هي القصص الافكيَّة التي يستنبطها الكتبة لتفكيه المخيّلة وقد تكلَّمنا عن اصلها وتاريخها ونتكلَّم الآن على خصائصها فنقول :

ان الروايات الخيالية من شأنها ان تعجب القارئ وتحسن موقعاً لديه فتجتذبهُ اليها. وهذه حقيقة لسوء الحظ ثابتة وامر عمومي يتناول الجميع وسبب ذلك ان الطبيعة تسترسل الى تخطي الحدود المصنوعة وتميل الى استكشاف الاسرار المغلقة. وقد طالما استخدم البعض هذا الميل الفطري لاجل تحويل الناس الى ما يرومون بهم. فان القدماء من اليونان كانوا يحوطون الهياكل الوثنيَّة بالغابات وكثيرًا ما يجعلون فيها بعض غرف سرِّيَّة استجلابًا للزوَّار فكانوا يُقبلون عليها بكثرة ويزدحمون عندها جموعًا وافرةً. وهكذا الروايات الخيالية فانَّها تكتنفها غابات مشتبكة الاغصان او بالحري اسرار ذات براقع مما شأنهُ ان يزيد الاذهان ولوعًا بها ويكثر سواد المقبلين عليها

ثم ان هناك اسبابًا أخرى كثيرة توضح ما اختصَّت بهِ الروايات الخياليـة من استمالة الاذهان اليها ولا يخلو سردها من فائدة:

انَّ الروايات تبهج المخيلة لأنها من استنباطاتها فهي ثمرتها وغذاؤها ولا نكير ان الاحاديث الخرافية تبهج دماغ الصغير والتخيُّلات تفتن عقـل الشاب والشابَّة حتى انَّهُ لا ينجو من تأثيرها لا المكتمل في الرجولية ولا الشيخ لا سيَّما وان الكاتب يصوِّر احوالًا خارقة العادة ويأتي باوصافٍ كاسية بالزينة او ذات غلو ومبـالغة حتى يتصوَّر القارئ انهُ في ارض محبورة لكثرة ما يرى من المشاهد الفتَّانة ولا يخفى ان أمرًا كهذا يُغري المخيلة ويحملها على ان تملِّل نفسها بالباطل وتستسلم بارتخاء الى الجاذب الذي يستميلها فتسكر وتوقد بلذَّة

ومن خصائص الروايات الخياليـة انَّها تسرُّ اللبَّ وتبهجهُ وذلك انَّهُ من المقرَّر ان هذه الروايات قريبة المنال على كل الافهام ولا يستلزم ادراكها شيئًا من المعارف الرياضية والطبيعية والكيماوية كما لا يستدعي ايضًا شيئًا من سلامة الذوق واستقامة الضمير. وعلى ذلك فهي دانية المرام لكل احد ويمكنها ان تلج كل المنازل على اختلاف انواعها فترقى الى قصور الملوك والكبراء كما تنزل الى اكواخ الزرَّاعين والعملة. وقصارى القول ان مطالعتها لا تفتقر الى غير أعين ومعرفة بكيفية القراءة وتوديع الفضيـلة. وليس في شيء من هذا كله ادنى صعوبة

ثم انَّ كل احد يعلم ان الفضول صفة خاصَّة بالطبع الانساني فقد خلقنا لطلب الحقيقة ولم تكن نفسنا لتشبع من المعارف. ولهذا ترى المجهولات والاسرار تجتنيها وراءها لاجل استكشاف ما تتضمنهُ من حقيقة جديدة. وعلى ذلك فليس من شيء يحرِّك الفضول

مثل الروايات الخيالية حتى انها ولو كانت سخيفة ركيكة الانشاء تحملنا على مواصلة مطالعتها لمعرفة نهاية حوادثها. نعم ان الروايات ليست بامور تشخيصية فليس هناك لا ممثلون ولا ملابس ولا مراسح الّا اننا نشاهد فيها كيفية نصب الحيل والمكايد وعُقدة الحوادث وتفاصيلها ثمّ الحلال العقدة في خاتمة المقال فهي اذًا فكاهة للمخيلة وقلّما طالع قارئ بعض سطورها حتى يشتبك بها ويعلق بين دواليبها فتجرّهُ في تيّارها

على أن أخصّ الدواعي الباعثة على مطالعة الروايات هو ما تتضمنهُ من اسباب اللذة التي تعرضها على القلب عرضها على أضعف محلّ واشدّهِ تأثرًا وأسهلهِ جرحًا. وليس من الضروري ان تتوغّل الرواية في أعماق القلب حتى تجد فيهِ استعدادًا للذّة الحسّ التي تتنبّه لاقلّ جرسٍ ولا تكاد تخمد حتى تشتعل كنار تحت الرماد تلتهب بادنى نسيم. فسبيل قلبنا اذًا تجدنا مستعدّين كلّ الاستعداد لا لتبرير الرذيلة فقط بل لمحبتها ايضًا. ولو ان الكذب الخارجي لا يلاقي فينا ميلًا اليهِ لمّا كان يؤثّر بنا ويهتج فينا لذّة رديئة بل اقبح لذة معروفة يعرق لها جبين الادب خجلًا. ولذلك نرى النفس الطاهرة تنفر من مثل هذه التآليف نفورًا طبيعيًّا بينما ان القلب الفاسد ينغمس فيها ولا انغماس العُقاب في الجيفة. فحبّة وكراهية الروايات الخيالية اذًا هما اصدق وسيلتين للحكم على منزلة الشاب او الشابّة

وفي هذا المقام نستأذن القارئ اللبيب فنزيد على هذه الاسباب العمومية اسبابًا اخرى هي أخصّ ببلاد الشرق فنقول:

ان الشرق هو بلاد الشمس والنور واهاليهِ ميّالون الى اللهو وانبساط النفس اكثر من ميلهم الى الاشغال المتعبة. ولا خفاء ان هذه الاحوال تبعث على التطلّع بالتصاوير التي يخترعها اصحاب الروايات وتسهّل الفُرَص لاجل مطالعتها. فان من يتمدّد متنعمًا على المقاعد الوثيرة يتلذّذ طويلًا بما يقرأ من الاوصاف الخالبة للبّ والمنبّهة لشهوات الحسّ. وهكذا يرى الزمان يذهب بلذّةٍ وتمرّ الساعات سراعًا بين الاوهام والتمثيلات المبهجة وما بين المشاريب المرطبة التي تقطع القراءة وأبخرة الدخان المُخدّرة التي من شأنها الاسعاف على الانقياد وراء الأوهام ومطالب المخيلة

ثم ان بلادنا يسهل فيها جدًّا اقتناء الروايات الخيالية لان الكتب الجليلة القدر يندر وجودها فيها كما انها غالية الاثمان. امّا كتب الروايات فانها كثيرة متوفرة واثمانها رخيصة جدًّا يسهل على الاغنياء والفقراء اقتناؤها دون صعوبة. ولا يخفى ان التآليف التي قلّت

رغبة الاوربيين فيها ترسل الى هذه البلاد باسعار دون الطفيفة واذا اقتناها مقتنٍ فانجبته يهديها الى صديقه وهذا الى معارفه وهكذا تنتقل من يد قارئ الى آخر دون ان تُبذل في سبيلها بارة واحدة

ومن جملة بواعث الميل الى الروايات الخيالية ايضاً هو أنهُ يوجد منها ما يوافق كلّ الاذواق ويلائم جميع المشارب بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة وحمراء الغلاف وخضراء وزرقاء وصفراء ووردية وغير ذلك من الالوان التي تستدعي التفات العين. هذا فضلاً عن ان عناوينها قد تُرسم بحروف جميلة على هيئات بديعة وكثيرًا ما تغلف بتلف تروق المنظر ايضاً مما تكون بداءة الافتتان بها

ثمرة الروايات الخيالية

لقد ظهر مما سلف ان الروايات الخيالية هي ثمرة الفساد وعلّته فانها تصدر عن معين متسمم وتوصل أذى السمّ الى شاربها والمتعلق بها. وان قيل هل كل هذه الروايات الخيالية رديئة وهل يجب الحكم برداءتها جميعاً دون استثناء. اجبنا على ذلك انهُ من الخطإ القول بكون الرواية الخياليّة من طبيعتها إفساد الآداب وتسميمها لانهُ يوجد منها ما لا يتوجه اليه انتقاد ولا يُزنّ بنقص بل ان منها ايضاً ما هو مفيد غاية الإفادة ويأتي بثمار حسنة. كالروايات التي من تأليف فِنِلون ولاموت وكرواية وقائع روبنصن كروزي(١ التي كثيرًا ما يكرّر طلبة العلم قراءتها وهم واجدون في كل مرّة لذّة جديدة ومنفعة قشيبة ومن يا ترى يتجرأ على التنديد برواية فابيولا التي اتّفق الجميع على انّها حائزة بين الروايات مقاماً رفيعاً ومنزلة سامية. واي كتاب اوفر انطباقاً على قواعد الادب والطف عبارة من تلماك. وكم يوجد ايضاً من الروايات الخيالية التي تكثر سواد المقبلين على المجلّات والصحف المستقبلة المبادئ فتصاغ في الاخير كتباً تهدى في رأس السنة او تعطى جوائز للطلبة (٢

١) الآنَ مترجم هذا الكتاب الى العربية قد زاد على الاصل قطعتين يطعن فيهما بالكنيسة ويطنب في المذهب البروتستاني

٢) وهذا ما حملنا على اتخاذ بعض صفحات في اضداد المشرق لنشر روايات ادبية تفكيهاً للقراء وملافاةً لاضرار الروايات الفاسدة جريًا على مثال مجلّات معتبرة كمجلّة التمدّن الكاثوليكي واقتداء ببعض مشاهير رجال الدين كالاسقف فينلون والكردينال وَيمان وغيرهما

لكن اذا كان بين الروايات الخيالية هذا العدد اليسير الذي يُؤمَن على قارئه من الخطر فان العدد الاكبر لسوء الحظ خطِر جدًّا كما سنبيّن ذلك بالادلّة الآتية فنقول:

ان الروايات الخيالية تبلبل المخيلة وتفسدها. وبيانهُ ان المخيلة هي قوّة تسري على هواها فتحتاج الى من يدير طريقها ويقوّم خطأها. امّا نورها فهو الذهن الذي يدلّها على قواعد الذوق والادب والخير. واما قائدها فهو الارادة التي يجب عليها ان تكبح جماح هذه القوّة الشاردة مخضعةً اياها لما عرضهُ العقل من القواعد وتخرج اوامر العقل الى حيّز الفعل

الّا ان الرواية الخيالية لا تعبأ بهذه الضوابط ولا تكترث لما يشير اليه العقل الصائب والذوق السليم كما انها تمجّ وصايا الادب وحسن النظام. فاين يا ترى تلك صفات الانشاء التي يرتاح اليها الذهن في مطالعة الكتب الادبية ؟ اين الطبيعيّة والسذاجة ؟ اين المعاني اللينة الفطرية ؟ فانّك بالاحرى لا تجد الّا حوادث وتزهات مستحيلة نتجت عن مخيلة الكاتب بلا تروٍّ ولا نظام. وربّما رأيت اجزاء الرواية لا تلتحم بعضها ولا نسبة بين مقام الاشخاص ولا مراعاة لمقتضى الاحوال الى غير ذلك من المقابح التي تشوّه فنّ الكتابة

وان كانت هذه نتيجة اكثر الروايات الخيالية في العقل فما قولك في الارادة فانّ هذه القوّة تضعف وتفشل اذا تقوّت عليها المخيّلة فتصير المخيلة اشبه بعبدةٍ تستولي الامرَ على سيّدتها فتجرّعها ألوان الذلّ والهوان. وعلى هذا النحو ترى قارئ هذه الروايات بعد قليل يطلق العنان لشهواته ويستسلم لاهواء قلبهِ وينقاد للذّة البهيميّة حتّى تعمى بصيرتهُ ويصبح ضحيّة هذا الداء العُقام

ولا يتنصّل قرّاء هذه الحكايات المختلقة بقولهم انّهم بمطالعتها يصرفون فقط بعض اوقاتهم بهجة وهناء. فنقول انّهُ لمن المستحيل ان لا يبقى لهذه القراءة اثر سيّئ في نفس قارئها. فكم من التصاوير القبيحة وكم من الاوصاف الخارقة لستر الآداب تنطبع على صفحات القلب فتأثّر صاحبها في كل حين وتثير فيهِ نار الغرام ولظى الفساد. وربما رافقتهُ في منامهِ لا تدع لهُ راحةً حتى انّها تضايقهُ في صلاتهِ. وقد ادّت هذه الحالة كثيرًا من الشبّان والشابّات الى خلع كل عذار بل الى شبهٍ من الجنون واختلال في العقل وبلغ الامرُ منهم في بعض الاحيان الى الانتحار

ومن اثمار هذه الروايات الخلاعية انها تزرع في العقل مبادئ قلّة الدين والكفر.

وذلك لانَّ اصحاب هذه الروايات يغلب عليهم روح الزندقة والالحاد فيضمّنون رواياتهم تعاليم سيئة يمزجونها باخبارهم الفكاهية كالسمّ في الدسم فيتشرّبها عقل القارئ من حيث لا يدري. واذا افترضنا ان مؤلف هذه الاقاصيص لا يريد التعرّض للدين فكم تراهُ على جهل وقلّة ادراك يحكم في عدّة امور فلسفية وادبية وسياسية ويعضدها بحجج اوهن من نسيج العنكبوت الّا انَّ القارئ لا يسلم من شرّها بعد ان اصطادت قلبهُ تفاصيل الرواية. ومن ثمَّ لا تكاد ترى بين من شُغف بمطالعة هذه الروايات رجلًا دينًا متمّمًا لواجبات دينهِ لما استقاهُ في هذه الموارد العكرة من المبادئ الوخيمة

ولسر الحقّ انَّى يمكن للشاب الصالح والفتاة الورعة ان يتردّدا مع عدّة اشخاص وهميّة يغلب على اخلاقهم البغض والحسد والغيرة والتغطرس وطلب الانتقام والوقاحة واصناف الخلاعة دون ان يكتسبا شيئًا من هذه الطباع الفاسدة ويتخلقا بهذه الاخلاق وقد قيل ان كلّ اناء بنضحُ بما فيهِ . وقال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينهِ فانَّ القرين بالمقارن يقتدي

فعلى هذا المنوال ترى بزمن قريب مَن كان مولعًا بهذه القراءات يفقد كلّ شعائر الدين بل يتجرّد من كلّ الصفات المدنية وحبّ الوطن والعائلة الى ان يتعرّى من عواطف الانسانية ويتدهور في كلّ الفظائع

فما قولنا الآن عن تلك العيال المسيحية التي لا تبالي بادخال هذه الكتب الخيالية الدنسة في صدر بيوتها وتعرضها على ابصار اولادها دون احتراس ولا تروّ أفليس الاب والامّ هما المسؤولان عن فساد قلب بنيهما وهلاكهم اذا وقعت هذه الكتب بين ايديهم وشربوا سمها الزعاف. أوَلا يحقُّ ان نردّد قول الربّ انهُ اولى لها ان يعلّق في عنقها حجر رحى ويلقيا في البحر لانهما خاطرا بانفس اولادهما ولم يبعدا عنهم اسباب الخطإ والهلاك. صانهم الله عن هذا الخطر الفظيع

وبالختام نطلب من ارباب المدارس ومن الوالدين المسيحيين ان يتلافوا هذا الشرّ العظيم بان يطبعوا في قلوب الاحداث بغض هذه الروايات الخلاعية وينكبّوا بهم عنها طاقتهم ويحبّبوا اليهم مطالعة الكتب الادبية الصالحة وتأليف العلوم الراهنة والاسفار والتواريخ الصادقة التي تنشّط الهمم وتبعث القرائح الى معالي الامور وشريف الاعمال وتمكّن الشبّان في الفضائل والصلاح ليُضحوا زينًا لاوطانهم ومثلًا لاقرانهم